النداء الإلهي بين السنن الشرعية والكونية

الأستاذ. عبد الحفيظ العبدلاوي

جامعة محمد الأول/ الكلية المتعددة التخصصات . مدينة الناظور . المغرب

Divine Call Between Religious and Secular Traditions

Prof. Abdel Hafeedh Al-Abdalawi

University of Mohammed, the First / College of Various Specializations. Al-Nadoor / Morocco

El abdellaoui abdelhafid

Abstract

The Evidential images referring to the unity of the divine call throughout the universe are various and renewing with time. It is reintroduced in the various aspects of science.

تعاقب الليل والنهار

رفع الله معالم الآيات خفّاقة في الكون، تدعو الإنسان وتستوقفه بأحوالها المختلفة، وألوان صفحاتها الساحرة إلى قراءة الكون والاعتبار به {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[١]

والصور الشاهدة على مركزية هذا النداء الإلهي على امتداد الكون، متعددة تتجدد بتجدد الزمن، وتتبعث بانبعاث العلوم المختلفة.

والزمن أمّ تلك الصور، جعله الخالق سبحانه ظرفا للإنسان ومحيط سعيه وكسبه ونعمته، يجدد به نداءه لبصيرة الإنسان وأحاسيسه، بصور لا تعد، وأحوال لا تحد على مدار حركته ودورانه.

فولادة النهار ومسيره بما يرافقه من عجائب الخلقة وجمالية الصنع هي فطرة الكون ناطقة، تحاكي صنع الله في فطرة الإنسان وتنادي بندائها:

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٢]

والفجر بداية حركة الكون مع الإنسان، وبداية التخلص من سواد الليل وضعفه شيئا فشيئا, كل شيء فيه صاعد إلى استجماع قوته آخذ لزينته الفاتنة وجماله الخلاب حتى يكتمل في أروع أنماطه وقوته. ثم يبدأ في الضعف والهبوط الى الزوال وفقدان ما جمع.

إن الكون بكل يوم من أيامه ينادي بأن الحياة مراحل تقطع ثم تزول، يحاكي مراحل الولادة والضعف والصبا والطفولة والشباب والقوة في الإنسان.

إن الكون ليهمس بكل ذلك في أذن الإنسان بهمسة الوحي الشريف يابن آدم}اغتنم خمسا قبل خمس صحتك قبل سقمك وشبابك قبل هرمك؟}[٣]

وعندما يصل النهار إلى الزوال يكون قد وصل إلى محطة الإنذار بنهاية نصف اليوم، وهو بذلك يصور نهاية نصف عمر الإنسان ونصف عمر الدنيا. ثم يبدأ الزوال وينقلب كل شيء في الكون: من الصعود إلى الهبوط، ومن القوة إلى الضعف، ومن الضياء إلى الظلام...

إنها صورة تحاكي الفقدان الدنيوي وتنذر بمستقبل تنقضي به الأيام وفرص العمل. إنه نداء الكون يتلاقى مع نداء الوحي على بساط واحد، يابن آدم}**اغتنم خمسا قبل خمس فراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك**}[٤]

وبدخول النهار في الليل وانطفاء أنواره يصور الكون نتائج الحياة فمن كان قد أعد مسكنا وجده، ومن أعد نورا وجده..

---

١ فاطر: ٢٧ ـ ٢٨

٢ الروم: ٣٠

٣ المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤/ ٣٤١ حديث: ٧٨٤٦

٤ المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤/ ٣٤١ حديث: ٧٨٤٦

وسكون الخلق في مضاجعهم ومغادرتهم عالم اليقظة حتى لكأن الدنيا خالية من خلق، صورة تشكلت لتنادي إلى الاعتبار بما تحاكيه بليلها البهيم من مصير الدنيا، وبخلقها المفقود من مصير حياة الإنسان.

إن الله برحمته وحكمته أخضع الإنسان لأن يمثل نفسه وهو ميت في قبره كل ليلة. وأخضعه لأن يمثل نفسه وهو مبعوث في كل صباح. يظل الإنسان هكذا مدة عمره، يصور الموت والحياة. فالنوم موت ونهاية. واليقظة بعث ورجوع وفرصة للإصلاح والتدارك، وتمكين لإعادة القراءة للكون والحياة والعمر. فكم من صباح يشرق على الإنسان بحياة بعد موت وهو في ذلك يعيد التصوير لما صوره الوحي في قوله صلى الله عليه وسلم {لتموتنَّ كما تنامون، ولتبعثنَّ كما تستيقظون}[١] ليجدد الله دعوته ونداءه إلى الاعتبار بتعاقب الليل والنهار بنظام معجز: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً}[٢] [٣]

فالاعتبار والاتعاظ مقصود ظاهر لله تعالى في تصوير زوال أطوار يوم من أيام الدنيا. وأطوار الزروع كما هو ظاهر بأطوار المخلوقات. فمن الفراش من يعيش دورته البيولوجية الكاملة في مدة لا تتجاوز أربعا وعشرين ساعة يولد فيها وينشأ ويكبر ويبني عشه ويخلف ذريته ثم يموت. فهذا ما ينجزه الإنسان في ثمانين أو سبعين سنة[٤].

النوم نعمة وآية

ثم إن جولان النائم في عالم النوم ووقوفه على مشاهدة آيات وأكوان، وإحساسه بسعادة أو شقاء، لهو تصوير لدخول عالم الدنيا في عالم الآخرة وانتقال الإنسان من حياة إلى حياة تذيقه من سعادتها، أو شقائها. ليتصور ما يعجز عنه عقله حال اليقظة من الأمور الغريبة وأحوال ما بعد الدنيا والتي يقصها الوحي وينكرها إنسان.

قال أبو بكر بن العربي: قيل إن النوم موت أصغر، وقد يقال بنظر آخر إنه يَقَظَةٌ صغرى، فإذا نظرنا إليه من حيث إنه انقطاع عن عالم التصرف الأدنى مع الآدميين والإكباب على الدنيا ومعانيها، وأنه إقبال على الملائكة المقربين، وتفريغ القلب لإدراك الحقائق بطريق الأمثال، ولا طلاع على ما يكون غداً رأينا أنه حياة صحيحة، ويقظة محققة بدلاً عن موت مفقد، ونوم مفسد. فلا يستنكر أن يكون له حالةُ وجود أخرى.[٥]

وإن نظرنا إليه من حيث عدم الحركة والحس والتصرف بالأفعال معه، قلنا هو موت لعدم ذلك كله به، والكل آية من أيات الله فقد قال تعالى:}اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٦]

فالرؤيا آيات من آيات الله المستمرة مع الإنسان تنذر وتبشر. عن أبي الدرداء، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ}[٧] فقال: «**هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له**»[٨].

قال ابن القيم رحمه الله: الرؤيا أمثال مضروبة يضربها الملك الذي قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرائي بما ضرب به من المثل على نظيره، ويعبر منه إلى شبيهه، ولهذا سمي تأويلها تعبيرا، وهو تفعيل من العبور[٩] على شيء إلى شيء، فقد يرى النائم نفسه معذبا أو مسلوبا أو ميتا يتحسر، يبكي قلبه لحاله وهو نائم، وقد يرى نفسه قد تزوج فيسعد ويتنعم وهو نائم أو يرى نفسه مالكا لثروة نقلته من

١ الموسوعة في صحيح السيرة النبوية - العهد المكي لمحمد إلياس عبد الرحمن (ص: ٢٧٠)
٢ الفرقان: ٦٢
٣ وفي هذا السياق يروى حديث مرفوع: **{ ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه يا ابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل عليك غدا شهيد فاعمل في خيرا أشهد لك به غدا }** أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٢/ ٣٠٤ - وهو لا يصح ذكره الشيخ الألباني وقال: موضوع. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١٢/ ٣٣٥) برقم: ٥٦٤٩ -
٤ جمالية الدين للشيخ فريد الأنصاري ١١٨
٥ قانون التأويل لأبي بكر بن العربي ١٣٧
٦ الزمر: ٤٢
٧ يونس: ٦٤
٨ مسند أبي داود الطيالسي (٢/ ٣٢١) حديث: ١٠٦٩
٩ إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ١٩٥/١

بؤس إلى رخاء ومن ضيق إلى سعادة يتلذذ بها قلبه وربما ابتسمت له شفتاه وهو نائم فإذا به يستفيق في جنح الليل فيجد غرفته ظلمات بعضها فوق بعض. لا زواج ولا ثروة ولا مال. إنه نداء الله وهمسة كونه في قلب الإنسان: انتبه أيها الإنسان فدنياك وثروتك المملوكة حقا، مثل منامك؟ إذا استيقظت من نومك صار ما ملكت فيه أحلاما، فكذلك إذا مت صار ما ملكت في دنياك ويقظتك أحلاما.

وفي الأثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: **الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**[١].

وإذا استيقظ الإنسان وجد ما رآه في منامه رسالة مطبوعة في قلبه تنتظر منه حسن قراءة وحسن تأويل، وتسأله سؤال تحدّ وإعجاز؟ من أدخلها إلى قلبك وجدرانه محصنة، وأبواب بيتك مقفلة؟ فإن فكر واعتبر بذلك أدرك بداية طريق، وأبصر جزيآت من ضياء الآية لأن الله تعالى سمى النوم آية وسمى الرؤيا وحيا وسمى الوحي نورا وضياء ومن لازم ذلك كله أن يؤثر بدلالاته نحو الهداية. فقد قص الله حكايات من عالم الرؤيا بقصة يوسف عليه السلام فكان منها إدراك عظيم وتحول جليل.

فقد امتحن يوسف وأبلي وحسد وألقي في الجب ثم بيع ثم اتهم ثم زج به في السجون بسبب رؤيا منام قصها الله بقوله: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ}[٢].

ثم رفعت عنه النقم وتتالت عليه النعم، فانتقل من دائرة التهمة إلى مكانة الصدّيق ومن السجين إلى مكانة أمين خزائن الأرض، برؤيا منام أرسلها الله إلى قلب الملك فطبعها في قلبه فما كان منه إلا أن جمع حاشيته يستعين بها على تأويل النبأ العظيم: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ}[٣].

فكان الاعتذار من الملأ بالجهل عن التأويل {قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ}[٤] ليتقدم رجل من خدام الملك كان الله تعالى قد أعده لهذا الموقف برؤيا منام أيضا. فهو أحد صاحبي يوسف الذي كان معه في السجن رأى في المنام أنه يعصر خمرا فأولها له يوسف بأنه: يرد على عمله الذي كان عليه من سقي الملك بعد ثلاثة أيام[٥] فكان الأمر كما أول قال الله تعالى عن ذلك {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[٦].

فدل الرجل الملك على يوسف[٧] وهنا وقعت المفاجأة وبدأ التحول {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}[٨].

من ثم بدأ مسلسل الإفراج وبراءة يوسف إلى تمكينه من خزائن الأرض إلى رفع أبويه على العرش، وخر له إخوته سجدا إلى كرامته بالنبوة التي خلدها الله تعالى له مفخرة في أشرف كتاب قال الله عنها:

{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}[٩].

فرؤيا منام حجمها صغير لكن دورها عظيم وهذه من حكمة الله تعالى في كل شيء فإنه يخرج الشيء من لا شيء فإن العبرة عنده تعالى في بلاغة حكمته وعظمة قدرته لا بصورة السبب.

---

١ قال الحافظ العراقي: لم أجده مرفوعا، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب. تخريج أحاديث الإحياء ـ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ـ (ص: ١٣٥٨)
٢ يوسف: ٤ ـ ٥
٣ يوسف: ٤٣
٤ يوسف: ٤٤
٥ القرطبي ٩/ ١٩٣
٦ يوسف: ٣٦
٧ يوسف: ٤٥
٨ يوسف: ٥٤
٩ يوسف: ١٠١:

فلم يرسل الله ما دمر به بنيان سجن يوسف، ولكن أرسل ما دمر به مغالطات في قلب من سجنه ليعلن الله براءته وصدقه وعفافه للعالمين لا بالتزكيته فقط وإنما بجعل من تحاملوا عليه يكذبون نفوسهم.

فجعل الله الكريم النوم مقاما يتجلى فيه نداؤه إلى رحمته فمزج فيه بين النعمة والآية، له بعد على الأبدان وبعد على الأرواح وطالب الإنسان أن ينتفع به آية كما ينتفع به نعمة.

فيرخي الله تعالى النهار ويقبض الليل لينادي به. ثم يقبض النهار ويرخي الليل لينادي به. ويقبض البصر ليفسح المجال للبصيرة لتقرأ ما رفع لها من آيات الأرواح وعجائبها، بعد ما فسح المجال للبصر ورأى ما رفع له من آيات الأكوان وعجائبها.

لعل آية الليل والنوم تكون أبلغ حين يرى النائم بقلبه ما لا يستطيع دفعه ولا جحوده. وما لا يملك له تأويلا إلا أن يقر بعلاقة القلوب بخالقها يوحي إليها ويصور لها ما يفرحها أو ما يحزنها أو يغير من حالها.

آيات تدور وتتناوب ورسائله تنطق وتنادي في كل الأحوال قال الله تعالى:

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً}[١]

وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢]

وقال تعالى {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا}[٣]

كل نائم يستيقظ على ما نام عليه، وكل ميت يبعث على ما مات عليه

ثم إن كل نائم يستيقظ على مانام عليه من خير ومسعدات الحياة، أو فقر وهموم ومنغصاة الحياة فمن نام على شيء استيقظ عليه. فالصورة تشكلت هكذا وفق حكمة الله لتحاكي وتنادي وتقول: إن من مات على شيء بعث عليه.

وهكذا صرّف الله الرحيم خلقة الإنسان وحياته ويومه وليله على هيئة تنتقل أمامه من محطة إلى محطة ومن حال إلى حال. من ضعف إلى قوة ومن قوة إلى ضعف. من بداية إلى نهاية، ومن نهاية إلى بداية فكل الأشياء تتحول أمام الإنسان وتتطور حتى تفقد. وكل شيء يحاكي بداية الإنسان ونهايته. فحياة الإنسان كلها مصروفة وفق هذا النمط يبدأ ثم ينتهي، فإذا أكل، كان لأكله نهاية، وإذا انتهى كان لنهايته بداية وهكذا. والكون في ذلك يحاكي بداية حياة ونهايتها. ثم يحاكي بداية حياة بعد النهاية. من ثم صاغ الله أمثلة كثيرة من هذا التشكل والتحول الكوني ودعا إلى جعله محطة عبرة وعبور إلى تصور الآخرة قبل الوصول إليها واستغلال الفرصة قبل زوالها وفواتها قال الله تعالى:

{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٤].

وقال تعالى {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}[٥]

١ الفرقان: ٦٢
٢ القصص: ٧١ - ٧٣
٣ الإسراء: ١٢
٤ يونس: ٢٤
٥ الكهف: ٤٥

وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ}[١]

وقال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[٢]

نداء الخلقة الآدمية

نادى الله تعالى الإنسان بصفة الآدمية أربع مرات في سورة واحدة وفي تراكيب متقاربة قال الله تعالى:

{يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}[٣]

{يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}[٤]

{يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[٥]

{يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[٦]

وهي نداءات في غاية من الأهمية والخطورة جاءت في معرض التذكير بآدمية الإنسان المكرم، المستخلف، المسخر في الكون.

وجاءت أيضا في معرض التذكير بعلاقة الشيطان بالإنسان غواية وحربا. وعلاقة النفس بالشيطان استقبالا، وعلاقتها بالغرائز إثارة وإغراء. وذلك بعرض آدم وحواء مثالا لقوة تأثير هذه العلاقات وسحرها وخداعها فقد غرهما إبليس بشجرة الخلد فأخرجهما من جنة الخلد {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ}[٧]

وجاءت أيضا في معرض التذكير بامتداد معركة ابليس مع بني آدم إلى يوم الدين ليأخذوا الحذر فالكيد شديد كما نص الله بهذه الصورة السالفة وبهذه العبارة البليغة: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا}[٨] قال الإمام القرطبي: ومن قولهم حنكت الفرس إذا جعلت في فيه الرَّسَن[٩].[١٠]

وهو إمساك الدابة باللجام فإنها بذاك تقاد حيث يشاك قائدها.

أبعاد النداء الإلهي بوصف الآدمية

لنداء الله الإنسان بهذا الوصف، علاقة متزامنة مع خلق آدم على أساس العهد الذي أخذه الله عليه وعلى ذريته

قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى}[١١] فكل نداء بهذا الوصف، هو تذكير للإنسان بعهده، وأمر له بحفظ كل ما ينعكس عنه. وهي أمور أختصرها في الوقفات التالية:

الوقفة الأولى: **النداء بوصف الآدمي تذكير بالعهد**

تعتبر الآدمية من أولى صفحات الوجود في تاريخ المخلوقات الدنيوية، ويعتبر التدين بموجبيه: الشرعي والكوني أول نقطة ركبها الله فيها. قال الله تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

---

١ الزمر:٢١
٢ الحديد: ٢٠
٣ الأعراف: ٢٦
٤ الأعراف: ٢٧
٥ الأعراف: ٣١
٦ الأعراف: ٣٥
٧ طه: ١٢٠
٨ الإسراء: ٦٢
٩ والحبْل: الرَّسَن. لسان العرب ٣/ ٢٥ – حبل وانظر ص ٣٤٤
١٠ تفسير القرطبي (١٠/ ١٨٦ –
١١ الأعراف: ١٧٢

لَا يَعْلَمُونَ}[١] فسمى الله الاستقامة والفطرة والدين خلقة في الإنسان كما في الحديث الشريف: {كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه}[٢]

وفي الحديث القدسي **{خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم}**[٣]

وانطلاقا من واقع الإنسان ومن أبحاث علمية منجزة سلك فيها أهلها مسالك العلوم التجريبية المحضة، نجد إقرارا وإثباتا بأن الدين معجون في تكوين الإنسان فلا بد أن يعبد فإما أن يعبد وفق الفطرة الآدمية يركع ويسجد لله تعالى، وإما وفق الطبيعة البهيمية يركع ويسجد للبقر، ويرجو الخير من الحجر والشجر.

تقول الكاتبة البريطانية إفلين كوبلد التي اعتنقت الإسلام وأدت فريضة الحج عام ١٩٣٣ – وكتبت كتابا بعنوان' البحث عن الله ترجم إلى اللغة العربية – تقول عن خلاصة قناعتها: سئلت كثيرا عن كيف ومتى أسلمت؟

وجوابا أقول: يصعب علي تعيين الوقت الذي سطعت فيه حقيقة الإسلام أمامي فارتضيت الإسلام دينا. ويغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى وليس هذا غريبا إذا ما راح المرء يفكر في أن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه.[٤]

فالحلقة الأولى في تكوين الإنسان حلقة تحصين وشرف. فالإنسان في أساسه محصن بالخلقة المباركة حيث خلقه الله بيده قال الله تعالى {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}[٥]

ومحصن من الداخل بالفطرة والتعبئة المباركة حيث أوجده الله على الفطرة ونفخ فيه من روحه قال الله تعالى: للملائكة {فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ}[٦]

ثم حصنه من الخارج أيضا **بمسحته** إذ مسح ظهره بيمينه. فروى الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة..**[٧]

وحصنه من الخارج أيضا حيث صبغ ظاهره بالدين قال تعالى {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً}[٨]

. وحصن معنوياته فشرفه في مكانته ووجوده فأسجد له ملائكته، ورفعه عن كل المخلوقات وسخر له افضل المسخرات وأمده بأطيب ما خلق في الدنيا وأفضل شيء أنعم به على مخلوق.

فمزج الله له بين الخير والحسن والتشريف والتحصين ظاهرا وباطنا ليرفعه إليه ويصله به ويناديه ويناجيه ويقربه ويقترب منه.

فهو سبحانه أراد أن يوصلك إليه فغطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه[٩]

بهذا الاصطفاء نادى الله الأنبياء وأممهم: {قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[١٠]

وبه نادى الآدمي {يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[١١]

وكثيرا ما نادى الله العباد بما نادى به الرسل، تشريفا لمقامهم.

---

١ الروم: ٣٠
٢ صحيح البخاري / فتح الباري لابن حجر ٢٩٠/٢ حديث: ١٣٨٥
٣ صحيح مسلم حديث رقم: ٢٨٦٥
٤ كتابها: البحث عن الله
٥ ص:٧٥
٦ الحجر: ٢٩
٧ سنن الترمذي ت شاكر ٢٤٩/٥ حديث: ٣٠٧٦
٨ البقرة: ١٣٨
٩ فيض القدير ٢/ ٢٠٥
١٠ الأعراف: ١٤٤
١١ الأعراف: ٣٥

فنداء الله الإنسان بالآدمية تذكير له بهذه المكانة العالية ليراقبها من نفسه وحاله فلا ينزل عنها حماية لحصانة الله له فإن حماية الملك والنعم جزئية في مفهوم الآدمي. فإن حافظ على النعمة كان ذلك عاجل بشراه من الآخرة. وهكذا فلا يزال الله يمد العبد بأجزاء رحمته ويذوقه منها ويزيده. وهو بذلك يجره ليغرس فيه التشويق والمراهنة على رحمة الآخرة التي هي تسعة وتسعون رحمة. فنجده تعالى لا يغلق على عبده بابا بحكمته إلا فتح عليه بابين برحمته. فالعبد يكون في بطن أمه ليس له من مصادر العيش إلا بابا واحدا وهو الحبل السري الذي يتغذى به من خلال تغذية أمه. وإذا أغلق عليه هذا الباب وخرج إلى الدنيا يفتح عليه بابين وهما ثديا أمه. وإذا فطم عن الرضاع وأغلق عليه البابين فتح عليه أربعة أبواب: الحبوب والثمار واللحوم والمشروب. وإذا أغلق عليه هذه الأبواب الأربعة، فتح عليه أبواب الجنة الثمانية فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

الوقفة الثانية: النداء بوصف الآدمي تذكير بنعمة الخلقة.

فقد جمّل الله تعالى ابن آدم بخلقته وشرّفه بمكانته فأفضل مخلوقات الله وأشرفها هو الإنسان

أظهر الله عليه هذه النعمة بسنن شرعه فساقها في سياق الامتنان في كثير من الآيات مثل قوله تعالى:

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[١]

وقال تعالى: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[٢]

وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[٣]

وأظهرها أيضا بسنن كونه. فالكل يعلم وبكل موازين الدنيا أن الإنسان أشرف مخلوقات الله الدنيوية. والإحساس بهذا إحساس بالتشريف والتفضيل يستدعي الشكر.

وقد دعا الله الإنسان إلى إدراك هذا الفضل من خلال دعوته إلى النظر في خلقة المخلوقات الأخرى مثل قوله تعالى {إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[٤]

وقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[٥] وهي نظرة لإدراك علم الله وحكمته ثم لإدراك فضله على الإنسان بخصوص خلقته.

وجه ابن آدم مجمع الشرف ومنبع المحاسن وهو محط بشارة الخير دنيا وأخرى

وقد جعل الله وجه ابن آدم مجمع الشرف والمحاسن فهو عنوانه في الدنيا وهو عنوانه في الآخرة. جعله الله نائبا عن البدن في مواقف الخير، وفي مواقف الخزي.فأخبر أنه يبيض أو يسود.

- فكان الوجه، أوجه وأعلى ما في الإنسان فكل المخلوقات وجوهها مساو مع جسدها إلا وجه ابن آدم فأساس تمركزه من الجسد عاليا ينحني لحاجة ثم يعود وليس له حالة يكون فيها أخفض من جسده إلى في السجود لخالقه تعالى. وفيه وضع الله نوره ليرى الجسم كله ما ينفعه ويتقي ما يضره، ووضعه عاليا ليرى الناس لا ليراه الناس. فالعاقل يستغل النعمة في طلب المزيد منها.
- وجعله عضو ا يكسب القلوب إليه أو ينفرها عنه فإليه ينظر الخاطب والمخطوبة. وإليه ينظر المستعطف لتحديد سخاء الرجل أو بخله: تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلا
- وجعل غسله من فرائض الوضوء
- وجعله نائبا عن القلب للتعبير عن فرحه حين يفرح وعن حزنه حين يجزن وعن حيائه حين يستحيي.

١ التين: ٤
٢ الانفطار: ٠٨
٣ الإسراء: ٧٠
٤ لقمان: ١٩
٥ الغاشية

. وجعله العضو المختار للسجود لله تعالى فلا ينحني الوجه عن الجسد إلا هنا من ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب الوجه[١] ومن ثم ثبت في الصحيح أن الله تعالى {**حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود**}[٢]

فالتذكير بالآدمية دعوة بإلحاح شرعي وكوني إلى الحفاظ على ماء الوجه حياء من الله، ودعوة إلى حفظ مقام الوجه عند الله فإن الله شرف ابن آدم بوجهه كما رأينا

فالتذكير بالآدمية تذكير بهذه النعم المستوجبة للشكر لأن ميزان الكون يجعل الجميل مع نظيره كل منهما ينادي بنداء الآخر فجمال الخلقة داع إلى جمال التصرف، واستقامتها داع إلى الاستقامة على الأرض.

وقد تحدث الله في فواتح سورة الملك عن استقامة ملك الله وجماله ثم قال {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٣]

فمن اعنتى بوجهه في الدنيا، فاستحيا به من الله كما يستحيي به من الناس، وغسله عن الدنايا كما يغسله عن الاوساخ، ورفعه عن الآثام والقبائح أثناء مشيه بين المعاني كما يرفعه عما يضره اثناء مشيه بين المباني حرمه الله على النار.

وكان وجهه في الآخرة محط سرور ومنبع الفرح والرضا قال الله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}[٤]

وقال تعالى {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خالدون}[٥]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {من شهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله مخلصا بهما، وصلى الصلوات الخمس، حرم الله وجهه على النار}[٦]

وجه الإنسان محط بشارة السوء إذا أهمل نداءه

وبما أن الوجه هو شاشة العرض لفرح القلب أو حزنه كما سبق وأنه هو النائب عن الجسد في تلقي البشارات إذا أحسن. فإنه النائب أيضا في تلقي بشارة السوء إذا تخطى صاحبه حدود وجهه وعطل رسالته وتغاضى عن سماع ندائه. فإن الله يقلب في حقه النعم ويوالي عليه النقم.

وقد توعد الله وجوه الظالمين بأنواع من الوعيد واستعرضها في صور هي محط النكال وسوء العقاب جمعت خزي الدنيا والآخرة قال الله تعالى: {وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا}[٧]

وقال تعالى {ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ}[٨]

وقال تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}[٩]

وقال تعالى {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ}[١٠]

وقال تعالى {أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ}[١١]

وقال تعالى {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ}[١]

---

١ صحيح مسلم حديث رقم: ٢٦١٢
٢ صحيح البخاري ٤٣٠/١٣ حديث: ٧٤٣٧
٣ الملك: ٢٢
٤ المطففين: ٢٢-٢٤
٥ آل عمران: ١٠٧
٦ المعجم الأوسط ٢/ ١٣٦
٧ الحج: ٧٢
٨ النساء:٤٧
٩ آل عمران: ١٠٦
١٠ الزمر:٦٠
١١ الزمر: ٢٤

وقال تعالى {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ}[٢]

وقال تعالى {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ}[٣]

وقال تعالى {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا} [٤]

أنواع الوجوه يوم القيامة

وبعد كل هذا نجد الله يخبر عن وجوه المخلوقات في أخطر المواقف وهو موقف تلقي الخلائق لنتائجهم يوم القيامة فالوجه هو عنوان ذلك.

وبالرغم من كثرة أنواع الوجوه في الدنيا فإن الله تعالى يختصرها كلها في وجهين اثنين قال الله تعالى:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ}[٥]

وقال تعالى {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}[٦]

وقال تعالى {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}[٧]

الوقفة الثالثة: **النداء بوصف الآدمي تذكير بخاصية السترة لبني آدم**

قال الله تعالى {يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}[٨]

والسترة أنواع:

. النوع الأول: ستر العورة

كل المخلوقات عارية إلا ابن آدم. وقد أظهر الله ستره بسنن كونه فجعل في مشاعره أن ستره يندرج في سياق تكريمه وتفضيله على سائر الخلق لعله يدرك فضل ربه عليه بهذا النداء.

. النوع الثاني: الستر من الفقر والخوف. فقد سمى الله المال والأمن لباسا واستعرضهما في سياق الامتنان على بني آدم بسنن الشرع فقال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [٩]

واستعرضهما أيضا بسنن الكون. فجعل أثار النعمة في وجه المستور كما جعل آثار العري في وجه من افتقر

. النوع الثالث: الستر بالعفو. فقد تعامل الله مع العباد بمبدأ العفو والتجاوز. فلو جعل ذنوب بني آدم تفوح لما جالس أحد أحدا. قال أبو العتاهية:

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح... فإذا المستور منا بين ثوبيه فَضُوحُ [١٠]

ومهما عظمت ذنوب العبد وخطاياه فإن الله تعالى يوسع عليه مدار ستره وعفوه لعله يستدرك فإن تاب أكمل عليه ستره في الدنيا، وستره في الآخرة.

روى الإمام أحمد بسنده إلى شيبة الخضري، قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز، فحدثنا عروة بن الزبير، عن عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ثلاث أحلف عليهن: لا يجعل الله عز وجل من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له . وأسهم الإسلام

---

١ النمل: ٩٠
٢ الأنفال: ٥٠
٣ الكهف: ٢٩
٤ الأحزاب: ٦٦
٥ القيامة: ٢٥
٦ عبس: ٣٨
٧ الغاشية: ١٦
٨ الأعراف: ٢٦
٩ النحل:١١٢
١٠ أدب الدنيا والدين ص: ١٢٥

ثلاثة: الصلاة، والصوم، والزكاة . ولا يتولى الله عز وجل عبدا في الدنيا فَيُوَلِّيهِ غيره يوم القيامة، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله عز وجل معهم، والرابعة لو حلفت عليها رجوت أن لا آثم: لا يستر الله عز وجل عبدا في الدنيا إلا ستره يوم القيامة " [١]

وإذا بالغ العبد في تجاوز الحدود وانتهاك حرمات الدين والحياء فإن الله يرفع عنه لباس ستره.

فالحقيقة أن الله تعالى لا يفضح العبد ولكن ينزع عنه لباس الستر فتظهر عليه فضائحه فتشهد عليه الخلائق استعدادا ليوم القيامة. نسأل الله تعالى أن يسترنا ووالدينا وأولادنا وأزواجنا.

. النوع الرابع: ستر الروح بلباس التقوى. وهو لباس يقي الإنسان كله ويحفظ نعمه ومكانته في الدنيا والأخرى.

وتخصيص الله له بمزيد من الوصية ينبئ بعظمة دوره وشموليته للإنسان ومنافعه ومكاسبه. من ثم نوع الله صفاته فجعل منه الحياء والصدق والخشية والرحمة فكلها صفات يتكامل بها هذا اللباس الواقي العظيم.

وفقدانه يعني إزالة للوقاية بين الإنسان والمكروه.فكم من كاس في الظاهر أمام الناس هو مفضوح في السر عندهم

وفي الحديث الشريف: رُبَّ كَاسِيَاتٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَاتٍ فِي الْآخِرَةِ» [٢]

والصورة التي صورها الله لآدم وحواء وقد فضحهما إبليس، من هذا التوضيح وهذا الترابط بين لباس التقوى ولباس المادة لأن الكتاب، كتاب حقائق وقوانين وليس كتاب تاريخ. ولذلك فالدنيا اليوم لا تخرج عن هذا القانون الإلهي فالناس كلهم تبع لميثاق الله حفظا أو ضياعا.

لهذا طلب الله من الإنسان أن يحكم رقابته على الغرائز التي هي منافذ الشيطان حتى لا يفسد عليه أصل نعمته.

الوقفة الرابعة: النداء بوصف الآدمي تذكير بارتباط النعمة بالفطرة الآدمية

إن التشريع الإلهي يعتبر الفطرة أمّا لكل شيء، ويعتبر الاستعلاء عنها عقوقا وفصلا بين ما يجب أن يوصل.

لذلك فأقبح الظلم يتجلى فيمن يعزل المادة عن الفطرة، فينسب الماديات إلى صناعته. وهذا من طبيعة النفس

فإنها تطغى بالمادة حين لا تستنير بالشرع كما أخبر الله تعالى{وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُور}[٣]

ومن طبيعة هذا الاستعلاء أنه يفصل الإنسان عن معرفة نفسه ومصدر وجوده وغايته فيستغفله صوت صناعته فيظن أنه ربها ويتجاهل أصوات الكائنات العظيمة وأصوات الماديات الشاهدة بعظمة الخالق التي ما رفعها الله إلا لتنادي العباد بنداء الوحي وتنهاهم بنهيه عن كل ما يخادعهم ويجرهم إلى دركة الطغيان كما أخبر الله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}[٤]

ولو أن الإنسان المادي . الجاحد . أنصف نداء الفطرة من فكره وأعطاها شيئا من التركيز والحق في محكمته لسمع نداءها ولأدرك أنها السبب الأول لعالم الماديات.

فكل الصناعات المتطورة اليوم، مبنية على أصولها البدائية الأولى. مهما ظهرت اليوم متواضعة لكنها أصل لولاها لم تبن الحضارات.

فلو لا تسخير الإنسان للكون ما أدرك الإنسان من الكون شيئا. ولذلك دعا الله الإنسان أن يعتبر بهذا المنّ.

{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٥]

وإلا، فللحيوانات عمر طويل في الدنيا لكنها لم تسجل تقدما ولا صنعت صناعة ولاخلفت تاريخا لأن الله خلقها منفصلة عن الفطرة.

---

١ فقال عمر بن عبد العزيز: إذا سمعتم مثل هذا الحديث من مثل عروة يرويه عن عائشة، عن النبي صلى الله عليه وسلم فاحفظوه. مسند أحمد ٤٢/ ٥٥ حديث: ٢٥١٢١

٢ مسند أحمد ٤٤/ ١٦٧ حديث: ٢٦٥٤٥ -

٣ النور: ٤٠

٤ العلق

٥ النحل:٧٨

ولولا تسخير الكون للإنسان ما أدرك من الكون شيئا أيضا. ولذلك رفع الله التسخير أمام الفكر وأكثر من آياته الداعية إلى الاعتبار به فقال {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}[١]

وقال {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢]

ولذلك نجد وصل ما يجب وصله، والجمع بين ما يجب الجمع بينه، أصلا عظيما مقدسا عند الله تعالى وعد عليه بجمع الإنسان بمحبيه في جنات عدن قال تعالى:

{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ...}[٣]

كما نجد التفريق بين ما يجب الجمع بينه وقطع الشيء عن جنسه جريمة يعاقب الله عليها بأقسى عقاب

فمن تجاهل حق الصلة وقطع الماضي عن واقعه ومستقبله جعله الله في هذا التركيب التالي {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[٤]

وأكثر الوعيد باللعن في القرآن والسنة نجده موجها إلى من يسهم في التفريق بين الأشياء والحقائق. كالساحر فإنه يفرق بين الأحبة، والداعي إلى الكفر والمناكر فإنه يفرق بين العباد ودينهم وفطرتهم ورسولهم.

وإنك لتجد آثار هذا الوعيد متجلية في طينة الملاحدة وحماة الظلم والفواحش لأنهم يسعون في فصل الإنسان عن فطرته.

ومن هذا السياق عظم الله تعالى حقوق الوالدين إلى درجة الإجلال، وأوجب برهما بمنتهى التلطف والرحمة والتذلل. لأن الوالدين أساس الوجود يمثلان الفطرة. ومهما سولت للولد نفسه الاستعلاء والانفصال عن هذا الأصل فصله الله بوعيد اللعنة الموجب للضلال في الدنيا والحرمان في الأخرى قال الله تعالى:

{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[٥]

{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[٦]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى}[٧]

فالنظرة المتوازنة إلى الكون والوجود سر من أسرار الله ونوره يمتلك الإنسان بها السير في الحياة بسلامة. لذلك كانت من وصايا الله بكل الموازين. ومن ذلك أمره تعالى للعبد أن ينظر إلى نفسه وهو نطفة، ولا ينظر إلى نفسه وهو يطير. وأن ينظر إلى نفسه وهو واقف على هرم الآخرة ولا ينظر إلى نفسه وهو واقف على هرم صناعته وقوته وماله فقال تعالى {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ}[٨] وقال: {وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}[٩]

---

١ إبراهيم: ٣٤
٢ النحل: ١٤
٣ الرعد: ٢١ - ٢٤
٤ الرعد: ٢٥
٥ محمد: ٢٢-٢٤
٦ الرعد: ٢٥
٧ صحيح ابن حبان (١٦/ ٣٣٤ حديث: ٧٣٤٠
٨ الطارق
٩ الحشر: ١٨

وكل من قرأ نفسه وكونه بقراءة الوحي يجد نفسه مالكا لخطوط هذا النور والتوازن في رؤيته وأحكامه.

ومن لم يقرأ نفسه بقراءة الوحي يجهل نفسه وروحه ويضل ضلالا بعيدا ويظلم ظلما كبيرا وينطبق عليه قول الله تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ}[١]

فالله تعالى يخبر أنه منح العقل البشري آليات الصناعة وكلفه بصناعة جنة الأبدان بتوجيهات الكون المسخر.

وكلفه بصناعة جنة الأرواح بتوجيهات الوحي المنزل.

الوقفة الخامسة: النداء بوصف الآدمي تذكير بالتفاعل الكوني بين الجوهر والمادة

أرشد الله إلى خيره بالدليل وابتلى بالصور. لذلك يعتبر الوصول إلى مستوى ما في مجالات الحياة المختلفة، منقبة ومثار إعجاب في ظاهره، لكن الأمر في حقيقته لن يكون كذلك أبدا إلا إذا كان صحيحا في سره.

فكثير ممن يحسب لهم حساب على مستوى الصور لا يزنون شيئا في حقيقة الشرع والكون. وكثير ممن لا يعبأ بهم هم كبار في ذلك. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {رب أشعث، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره}[٢] وقال: {إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة،} اقرءوا {فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا}[٣]

فالحقيقة لا ترصد بالصورة لأن الله تعالى حدد الخير بالاستدلال وابتلى بالصور لذلك نهى أن تجعل الصورة عنوانا لخير أو شر قال الله تعالى {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا}[٤]

وقال {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[٥]

وركز التشريع الإسلامي في دعوته إلى رصد الخير بالعلم والدليل ووصفه بالنور والضياء من ثم حكم الشرع والكون بنجاة عميان البصر على عميان البصيرة. والدنيا تسير بهذا النظام فالمكتسبات الكبرى لا تدرك بالعين المجردة.

من ثم دعا الإنسان إلى قراءة النعمة والنقمة وفق هذا المعيار فلا يحدد الخير حتى يجد صدقه محمولا على سند من الله ورسوله ملموسا محمودا بحس الفطرة. فعندما يؤدي واجبه نحو روحه على درجة من الإخلاص يرتوي الكبد ويأذن للعين أن ترخي سحائبها، يجد النفس تلامس الرحمة وتقترب من السكون والراحة. وعندما يقع في عكس ذلك يجد قلبه يلامس الحسرة ويقترب من الضيق. فهذا أمر الكون ونهيه وامتداحه وذمه يتلاقى فيه مع الشرع

في ندائه بقراءة متوازنة للكون وفي تحذيره من القراءة المشوهة.

فلا يصنع الإنسان من علمه عيونا لا تقرأ إلا الدنيا والتهافت فيها. وتنهاه أن يقيم لسانه إعرابا ولا يبالي ان يخطئ به أخلاقا. وأن لا يسقط جسما ولا يبالي أن يسقط روحا.

فإن الغايات المصنوعة بالنظرة الغير المتكاملة، غايات مشوهة، وصاحبها أول ضحاياها فهو أمام السنن الكونية لا تحابيه أن تصنفه عند الجزاء مع الخاطئين وعند العقاب مع المفلسين.

فالعلم الذي اوجبه الله تعالى، أوجبه لأدواره والعالم الذي شرفه الله شرفه بأبعاده وأعماله لا بصورته وتخزينه

فالواجب أمام هذه السنن والقوانين طلب الحذر فإن الأخذ بالحذر من أسباب السلامة والوقاية والهداية بمكان والإنسان الذي يحكم لنفسه بالنزاهة إنسان مغرور مهمل وذلك وجهة معاكسة للخير والتوفيق في إطار التافاعل الكوني بين الهداية والضلال والعطاء والحرمان يقول ابن أبي مليكة: **أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كلهم يخاف النفاق على نفسه.**[٦] وهذا منهاج لكافة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم لذلك سلمهم الله وبشرهم بالجنة كلهم.

---

١ الحشر: ١٩
٢ صحيح مسلم حديث: ٢٦٢٢)
٣ صحيح مسلم حديث: (٢٧٨٥)
٤ الفجر: ١٥- ١٦
٥ البقرة: ٢١٦
٦ صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي - باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر

وهذا مقياس لكل صاحب نعمة فعليه أن يتتبع آبعادها حتى يفيض آثارها على روحه كما فاضها على جسمه ودنياه فجمال الصور ومتعة الأجسام وقوة الشباب وشرف الجاه ونعمة المال، إنما ذلك تكليف بالتصرف قابل لأن يكون نعمة كما أنه قابل لأن يكون نقمة لذلك نجد من قواعد الشرع الكبرى: يجب الحذر في باب النعمة أشد منه في باب النقمة لأن النقمة في حد ذاتها مشرّبة بالعبرة، والنعمة مشرّبة بالغفلة، والإنسان يؤتى عندما يأمن.

والطاغي والفاسد والظالم دخل عليه الخراب من باب النعمة والأمان. فقارون وفرعون وكل طواغيت الأرض جاءهم الهلاك من باب النعمة قرءوها مفصولة من سياقها.

قال الله تعالى {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ}[١]

فالقراءة الصحيحة للكون، سبب أساس للإدراك منه. والواقع يثبت أن النقطة الأولى في أسباب تقدم الأمم والمجتمعات أو تخلفها تعود إلى نوعية الوعي لدى مثقفي الأمة وإلى نوعية عيونهم التي يقرءون بها الحياة والعلم والمسئولية والخيانة والتقدم والتأخر والربح والخسارة. فذلك هو الذي ينعكس على الفرد والمجتمع والأمة إما تقدما أو تخلفا.

مفاهيم الحياة في إطار التفاعل الشرعي والكوني

لقد فصل الله الحياة وبينها وصرفها من أجل أن يوصل العباد إلى أن للحياة مفاهيم تحاور الإنسان وتخادعه

وتحاربه محاربة ممدودة لا تتوقف، وأن أي جهة أهملت من قبل الحذر في لحظة ما، يدخل الغدر منها

وفي هذا الصدد نجد الله تعالى نهى بالسنن الشرعية والكونية عن معنى الغرور والخداع والغش والخيانة والسقوط والهبوط والاستكانة والإهمال والاستسلام.. في صور كثيرة والمقصد الشرعي من تلك الصور هو التمثيل والتصوير لقاعدة الشر والغدر والخيانة في الأرض ليحذر العباد معناها لا صورها فقط فإن الصور تتجدد ألوانها بتجدد الزمن. قال الله تعالى {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [٢] فهل صورة الشيطان معلومة حتى تتصور رءوسه.

وقد فهم كثير من المخلوقات التحذيرات الشرعية والكونية في سياق صوري محدود فسلمت من مخاطر الصور التي فهمت وخدعت من قبل مجموعة أخرى غفلت عن جعلها ضمن قاعدة الشر فلم تتفاعل معها شرعا فلم تسلم من عقابها شرعا كونا

فكان في واقع المسلمين من لا يمكن أن ينخدع بالسم إذا خدع به لكونه رصد صورته ووجهته، ولكن لما جاءه الخداع نفسه على صورة مغايرة لما عهد، خدع من قبل نفسه فتجد كثيرا من المسلمين يسممون نفوسهم بنفوسهم. فيشربون الدخان والمخدرات برغبتهم ويشترونها بمالهم

وتجد في واقع المسلمين من يتفطن لكل خدعة يراد بها سرقة ماله ولا يتفطن لمن يسرق روحه أو روح ولده

ووجد في واقع البشرية من يستقبح السقوط ويأخذ كل احتياطاته حذرا من معرته وقسوته ولا يبالي أن يسقط روحه في ضلالات الأفكار ومستنقعات السلوك وخيانات الخالق.

وتجد من لا يمكن أن تستسلم لعدو يريد فضحها ونزع لباسها، ولا تنتبه وهي تخدع نفسها حين تنزع لباسها بنفسها.

وأقبح الخيانات خيانة الإنسان لنفسه وولده ومسئوليته ومجتمعه ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يعلم المسلم أن يحذر خداع نفسه أولا قبل غيره. فما من خطبة خطبها إلا صدرها بقوله الشريف: ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا[٣]

وما من خرجة خرجها من بيته إلا علّم المسلم أن يتعوذ بالله من شر نفسه أولا فكان يقول: **{اللَّهُم اني أعوذُ بِكَ أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أجهَل أو يُجْهَل عَلَيَّ}** [٤]

وما من نهار انفلق صباحه أو غاسق وقب ظلامه إلا استعاذ بالله من شرور ما يحملانه كما جاء في المعوذتين.

---

١ الأنعام: ٤٤

٢ الصافات: ٦٥

٣ سنن أبي داود (٢/ ٢٣٨) حديث: ٢١١٨

٤ سنن أبي داود ت الأرنؤوط ٧/ ٤٢٤ حديث: ٥٠٩٤ إسناده صحيح.

وأدرك الصحابة هذا الفقه فكانوا يحذرون ويحتاطون من كل شيء ظاهره جميل حذرا أن يكون خدعة [١] لأن الغدر يأتي على زينة، والسم يقدم في الدسم لهذا كان أبو بكر إذا مدح خاف أن يكون المدح من هذا القبيل فكان يلتجئ إلى الله أن يحفظه من شر ما قد يكون مدسوسا في ذلك ويقول: اللهم! أنت أعلم مني بنفسي وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم! اجعلني خيرا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. ثم كان هذا الدعاء من عامة الصحة. ثم كانت عندهم فتيا لكفارة من مدح في وجهه[٢]

فصحح الله مفهوم جهة الخداع والخيانة المحيطة بالإنسان. وبين أن الخداع حقيقة لا صورة والشر محدود[٣] لا معدود من ثم وسع العلماء صور الكبائر من سبعة إلى سبعين إلى سبعمائة.

وحين تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن الغفلة، انتهى إلى قوله:**{إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم}**[٤]

وحين تحدث الله عن الخداع انتهى إلى قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[٥]

تفاعل الإنسان بين الكائنات

حوار الكائنات فيما بينها حكمة شرعية و ضرورة كونية. ففي الكون من السنن ما لا تتوقف عن الحرب فيما بينها من أجل كسب الإنسان لأن الأصل في الحياة هو الابتلاء بهذا التفاعل.

وقد أقسم الله على ذلك {والعصر إن الإنسان لفي خسر} فجعل طبيعة الوعاء الدنيوي المحيط بالإنسان، الخسران وجعل السلامة منه مستثنى. فمن أراد ان يسلم روحه في معركته لابد له من التفاعل والممانعة.

وقد جعل الله الحياة على صور تعلم هذا التفاعل في جانب الأرواح والمعاني. فأثبت للإنسان علاقة تفاعلية مع السنن إما رابح وإما خاسر إما منتصر وإما منهزم فهو مع البحر انتفاعا، والبحر معه انتقاما أو استسلاما وهو مع الكهرباء انتفاعا، والكهرباء معه انتقاما أو استسلاما، وهو مع المرض حربا والمرض معه إما استسلاما أو انتقاما وهو مع الجهل والفقر كذلك. فمن الناس من ولد جاهلا فلم يتفاعل مع الجهل حربا فعاش ومات جاهلا، أو ولد فقيرا فلم يتفاعل مع الفقر حربا فعاش ومات فقيرا. ومن الناس من تفاعل مع هذه السنن فعاش غنيا عالما وصنع من الحياة ومن التراب طيرانا أغنى نفسه وأراح غيره.

وإنك لترى إنسانا وأسارير حاله تبرق ثراء وغنى، انتصر في تفاعله بسنة الغناء على سنة الحاجة. وترى إنسانا آخر وآثار الحاجة تدب على وجهه وحاله، مقهورا منبوذا في مجتمعه بسنن منزوعة الرحمة انتصرت عليه في معركة الصراع الكوني

فالمعترك يستوجب الصبر والمنتصر فيه بالسنة الكونية سالم وغانم فكذلك الصابر المنتصر بالسنة الدينية على شهواته وشبهاته وجحوده وجهله وأنانيته سالم وغانم.

فكل نتائج الحياة تصور نتائج المعركة الكبرى. وقد أعلم الله الإنسان هذه الطبيعة القاسية للكون بولادته فهي أول رسالة إليه تشعره بطبيعة الدنيا حملته أمه كرها ووضعته كرها فكم من أم ماتت في نفاسها وكم من ولد مات أثناء ولاته. تصويرا للطبيعة الدنيوية ليأخذها بمأخذ الجد والحذر. فيؤمن بقسوتها وحرمانها ووجوب احترام سننها بالتقلب مع السنن صعودا وهبوطا بكل المقاييس حتى يحظى بالوصول الى كنوزها واجتناب شرورها.

تفاعل الإنسان مع بني جنسه

والحياة كما هي معركة في مجالات فهي معركة في مجال الفكر لا بد من مصير للإنسان فيها انتصار أو انهزاما

فما من إنسان إلا وهو يحاور غيره بما يحمله من فكر ويحاول بكل قوته أن يجعله على مذهبه و توجيهه ليسبح بحمده ويقدس له

---

١ لو كان رجلا لكان قبيحا

٢ أسد الغابة ط الفكر (٣/ ٢٢١) ـ الأدب المفرد مخرجا ص: ٢٦٧ ـ حديث: ٧٦١ شعب الإيمان (٦/ ٥٠٤) ٤٥٣٤

٣ أي معرّف. فهو معنى متعدد ومتجدد الصور.

٤ صحيح مسلم حديث: ٢١٧٤ سنن أبي داود (٢/ ٣٣٣) حديث: ٢٤٧٠

٥ فاطر: ٥

ونظرا لهذا التفاعل الكوني وما له من دور في كسب القلوب وتطويعها وبرمجتها وفق المطلوب، بذل فيه الغرب جهودا جبارة أنفقوا فيه أموالا وأعمارا استطاعوا هزم الكثير من الخلق في هذه المعركة الفكرية الخطيرة لأنه أدرك أن المحارب إذا ربح المعركة فكريا هان عليه ما سواها لأن حارس الإنسان والمجتمع والأمة هو الفكر وإذا طوع الفكر أصبح الإنسان تابعا لا ميزان له ولا ذوق. وأصبح على نفسه وأمته، آلة تستقبل وبوقا يروج والواقع معبر أكثر.

نداء الأوامر الكونية ونواهيها

إن أوامر الشرع ونواهيه عنصران حافظان لآدمية الإنسان، ضابطان لحياته لترفع تصرفاته وعلاقاته إلى ذلك المستوى الآدمي المشرف.

وأوامر الكون ونواهيه تؤازر الشرع وتحاكي أمره ونهيه وتنادي بندائهما. الشيء الذي يجعل أوامر الشرع ونواهيه تتمركز في مواقعها الكونية تمركزا صلبا تسير بسير الزمن ولا يزيدها الزمن والعلم إلا قوة وتصديقا وحكمة.

فالأوامر والنواهي في التشريع الإسلامي يحاكيان إشارات السلامة في دنيا فيها منعرجات، ويحاكيان التنبيه والتحذير في دنيا فيها شرور وأوساخ وأشواك وشهوات وشبهات هي معركة، من شأنها أن تهلك الإنسان.فالتنبيه والتحذير ضرورة. وفي الحديث: {الدعاء سلاح المؤمن} [١] فالدنيا معركة

فالأمر والنهي سنتان كونيتان قبل كونهما سنتين شرعيتين لم يفرضا على العباد حتى زرع الله خيره في المأمورات، وشره في المنهيات فالكون ينطق بما نطق به الشرع. والعقل يدرك ذلك تماما.

وتكذيب المكذب لا يعني عدم إدراكه للحقيقة بقدر ما هو جحود لها وعدم التعامل معها لإدراك سرها كما شهد الله تعالى {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}[٢]

فالوضوء مثلا أمر وتكليف لكنه وسيلة حفظ وشعار جمال ناطق.

والنهي عن الزنا مثلا تكليف بالامتثال. لكنه وسيلة حفظ وعصمة بامتياز، ولباس فخر وكمال وشرف ينطق الكون به تبجيلا وإكبارا وإجلالا للعفيف فكم هو العفيف جميلا كبيرا قويا في ميزان الكون، وكم هو الزاني ملطخا موسخا ذميما خائنا في ميزان العدل الكوني أمام نفسه. فحتى إذا تاب توبة نصوحا يقبله الله ويعفو عنه لكن يبقى أمام نفسه وضميره حقيرا معذبا موسخا منكسرا منكسا يخجل من التاريخ أن يسمع من يتحدث في العفة؟

أليس هذا التصوير الكوني لجريمة الزنا في هذا اللباس الموسخ البئيس نهي كوني يحاكي نهي الشرع ويؤازره؟

يقول السموءل بن عاديا

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس له إلى حسن الثناء سبيل [٣]

والشعائر الدينية كلها مصروفة وفق هذه الحكمة ترصد الخير والجمال فتأمر به، وترصد الشر والقبيح وتنهى عنه.

فليس التكليف الشرعي تضييقا للحرية كما يدعي خصوم الدين، بل هما وسيلتا حفظ للإنسان المشرّف من الخروج عن تمثيل آدميته إلى تمثيل الحيوانات والبهائم، التي هي بدورها تصور كائنا بلا مكانة ولا تشريف لعل الإنسان يدرك نعمة الله عليه في ضبط حياته ويدرك البون الشاسع بين شهوة الآدمي وشهوة الكلاب؟

يقول الأستاذ النابلسي: إن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه أعظم تكريم، وسخر له الكون تسخير تعريف وتفضيل، ووهبه نعمة العقل، وفطره فطرة تنزع إلى الكمال، وأودع فيه الشهوات ليرقى بها صابرا أو شاكرا إلى رب الأرض والسماوات..[٤]

---

١ المستدرك على الصحيحين للحاكم ١/ ٦٦٩ - ١٨١٢

٢ الأنعام: ٣٣

٣ المدهش لابن الجوزي ص: ١٨٠

٤ موسوعة الإعجاز العلمي للأستاذ النابلسي ص ٧

فشهوة الآدمي ركبت فيه لحكمة يرقى بها في فترة شبابه بالصبر، وفي فترة زواجه بالشكر. ويرقى بها في فترة فقره بالصبر وفي فترة غناه بالشكر.

والله تعالى فرض أجورا خاصة على الطاعة في الظروف الخاصة. فحكمة شهوة الآدمي الرقي والكسب الطيب الممدود، وحكمة شهوة الحيواني تصوير للقبح لتنفر منه الفطرة الراقية والآدمية المشرفة والإنسانية الجميلة؟ فالحرية، حرية عقل لا حرية شهوة [١]

فواقع من يحارب هذه السنن كما قال الشاعر: لا تلومن أعمى على سفاهة فإن مكان النور به خراب

نداء الصورة الجمالية

الصورة الجميلة في الكون تدعو وتنادي إلى جميل مثلها. وفي هذا السياق نجد الله تعالى جمع في أنبيائه كل معاني الجمال والحسن، ذلك لأن الجمال محبوب بالطبع، مرغوب فيه فحكمته تعالى في ذلك أن يحبب أنبياءه إلى خلقه ليتاثروا بدعوتهم.

والصورة في الخلقة هادفة إلى ما هو أبلغ وأعمق من ظاهرها، وهذا ما فهمه الرسل وبلغوه للأمم.

فكان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إذا نظر في المرآة أدرك من جمال صورته أمرها ونهيها فقال: **أللهم كما حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**[٢]

فاهتم ببلوغ تلك الأبعاد حتى مثلها أعلى تمثيل بشهادة الله تعالى قال: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [٣]

فوصف الصحابة حظه من جمال الصور كأنه قطعة قمر [٤]، وحظه من جمال السرائر {كان خلقه القرآن} [٥]

معركة شرسة بين الجمال والقبح

وفي هذا السياق التربوي العالي نجد الله تعالى يصور معركة شرسة دارت بين الجمال والقبح بين فيها دروسا لطلاب الجمال المتكامل الصادق الذي لا يزول عن صاحبه ولا يخون ولا يزيده الزمن إلا نصاعة ولمعانا وبهاء وسناء

فمن جنس الرسل كان يوسف عليه السلام. أجمل صورة في مخلوقات الدنيا بقيت مثالا فريدا خالدا في المثل العليا فلما رأته النسوة خرجن عن طبيعة الإدراك والشعور أنه إنسان فكان حالهن ما قصه الله عنهن {فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ}[٦]

ولقد فهم بكل وضوح أن جماله الخـــلاب وصورته اللامعة ما هي إلا رمزا داع ولسانا آمرا بالحفاظ على جمال الروح ليتم التطابق بين الجمالين.

من ثم قرر خوض المعركة بكل تضحية وبكل قناعة ودفع الأثمان غالية من أجل جمال روحه فسجل مواقف ومبادئ خالدة استحقت أن تكون تشريعا لأمة الإسلام، أنوارا وأضواء ومفاخر وقلائد لشبابها وشاباتها.

فلما راودته امرأة العزيز {قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [٧] فحسن المثوى جمال يدعو إلى مثله. وما تدعو إليه امرأة العزيز أوساخ تلطخ الجمال. ولما رفعت أمرها إلى مستوى التحدي والوعيد إن لم يفعل، تحداها بتحدّ مماثل. قال الله تعالى{وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ..}[٨]

فلما قرر خوض المعركة قذفته أمواجها إلى داخلها فبحث عن أسباب المقاومة فلم يجد أمامه إلا الهروب فهرب والشر يلاحقه ويطارده فسجل درسا آخر للأبطال من أن الهروب من القبائح شجاعة البطل. فإذا بطريق الهروب يؤدي به إلى قفص الاتهام

١ يجمل بطالب العلم الرجوع إلى عنوان: حرية العقل لا حرية الشهوة في كتاب الشيخ الغزالي: هذا ديننا ٣٦
٢ رواه البخاري في الأدب المفرد (ص: ١٥٠) حديث: ٢٩٠؛ وابن حبان في الصحيح (٣/ ٢٣٩) حديث: ٩٥٩
٣ القلم: ٤
٤ كما في وصف لكعب بن مالك ـ صحيح البخاري بفتح الباري لابن حجر ٦٥٣/٦ حديث: ٣٥٥٦
٥ كما في وصف لعائشة ـ الأدب المفرد الأدب المفرد ص: ١٦٠ حديث: ٣٠٨
٦ يوسف: ٣١
٧ يوسف: ٢٣
٨ يوسف: ٣٢

أمام العزيز {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ..} [١] حاول الدفاع عن نفسه {قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي} [٢]

إلا أن الظلم طمس العقول والحقائق، فنقل إثر ذلك إلى المحكمة ومنها إلى السجن ليعيش سلسلة من المحن داخل هذه المعركة ويمتد لهيبها إلى أبيه الأسـيف، والذي حكى الله تعالى محنته أيضا فقال {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}[٣]

ليظهر الله تعالى القصة في آخر مطافها أنها معركة بين الجمال والقبح وبين الطهارة والوسخ. معركة تلقن الدروس وتعلم الصبر وتظهر العاقبة للطهر. وتبين أن لكل ربح ضريبة ولكل انتصار تضحية. وتبين أن طريق الطهر لا بد أن يوصل إلى محطة الشرف، مهما التوى فذلك امتحان فقط فمن صبر تحقق له النصر. فكم من ظاهرة في قصة يوسف، ظاهرها قد يحدث شكا في الطريق فقد كان به لما فر من امرأة العزيز أن يجد نفسه ناج لأنه فر إلى الله ولكنه لم يكن ذلك بل وصل إلى مزيد من البلاء. وبالرغم من كل ذلك فقد استيقن من طريقه فواصل السير ولم يبال بالظلم ولا بالسجن.

فلم يكن للبلاء المتتالي أن يبدل الحقائق في يقينه واعتبر أن ما حصل إنما هو مزيد من أسباب النصر والتمكين. وأن وعد الله لابد أن يتحقق. فها هو يوسف نبي من أنبياء الله عايشته أمته وهاهو تعايشه أمة الإسلام

فلما ظهر يقينه أظهر الله نصره واصطفاءه {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [٤]

فحول الله ذلك الفم الذي كذب عليه واتهمه إلى الشهادة له بالجمال والبراءة. {قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٥]

وأظهر الله أيضا انتصاره لذلك المحامي الصغير الذي حاول أن يدافع عن الجمال فسجل الله موقفه خالدا، مصدر شرف لكل مناصر للطهر والعدل فله وعد مع الله أن يلبسه لباس العز والنصر حتى وإن كان ضعيفا لا ينال بضعفه ما يريد فالله تعالى يحقق له أفضل مما يريد قال الله تعالى {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ}[٦]

وأظهر الله أيضا إذلال الباطل والظلم وأهله وذلك بعرض حال إخوة يوسف وهم يناشدونه ويسألونه صدقة.

{فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين}[٧]

وبهذا الجمال والصدق والصبر في طلبه يوزن الرجل وتوزن المرأة و به تنال الشفاعة حين تتخلف الأسباب المادية

نجد يوسف يدلي بدليله على كفاءته لنيل أمين خزائن الأرض بشهادة لا يرد جاهها: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}[٨] مع أنه أجمل مخلوقات الدنيا لكن الجمال صفة جسم لا توزن في ميزان المعاني.

فالسؤال هنا؟ كم ينفق الشاب من أجل كسب جمال مظهره وأناقته ليكون وازنا بين أقرانه. فهل تفقد وزن روحه وهل نافس ليكون وازنا في ميزان مولاه؟

الاستماع لنداء الآيات الكونية وأبعادها

---

١ يوسف: ٢٥
٢ يوسف: ٢٦
٣ يوسف:٨٤
٤ يوسف: ٢٤
٥ يوسف: ٥٢
٦ يوسف: ٢٧
٧ يوسف: ٨٨
٨يوسف:٥٥

قال الأستاذ النابلسي: وإذا كانت آيات الأمر تقتضي الطاعة وآيات النهي تقتضي الترك فما ذا تقتضي آيات الكون؟ إنها تقتضي التفكر [١]

ويقدر عدد الآيات القرآنية الداعية للعقل إلى الاعتبار بالكون بأربعة آلاف آية في حين يقدر عدد آيات الحلال والحرام بحوالي ثلاثمائة آية.

وتوصف الصور الكونية المذكورة في القرآن الكريم بأعداد كبيرة. وذلك يوحي بأن أسرارا عظيمة وكنوزا ثمينة أودعها الله في آيات الكون من طبيعتها أن تنعكس على مستوى التغذية الروحية فتقرب القلب من نداء الله ونوره وتمكنه من بناء الإيمان وامتلاك اليقين الذي هو أساس الوجود.

فكل صورة في الوجود لها مدلول نعمة ومدلول آية بناء على سعة رحمته تعالى وعظمة مغفرته. فالمتعامل بفكره السليم يدرك الخير برحمانية الله الكونية ويدركها برحيميته الشرعية. فالكتاب كتابان: كتاب مقروء ناطق، وكتاب منظور صامت فإن لم يتحاكم الإنسان إلى الأول فعليه أن يتحاكم إلى الثاني لأنه تحاكم إليه وتعامل معه بفكره في مجال الماديات فأدرك منه عجائب النعم وصنع منه غرائب النقم. وإلا فسيكون معطلا لفكره وذلك هبوط عن صفة الإنسانية قال الله تعالى {وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ} [٢]

ويصف النبي صلى الله عليه وسلم حرصه على توضيح هذه النقطة، بهذه الصورة البلاغية الآتية:

لما أنزل الله قوله تعالى {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا...} إلى آخر الآيات من خواتيم سورة آل عمران

دخل بلال على النبي صلى الله عليه وسلم يؤذنه بالصلاة، فوجده يبكي فقال: يا رسول الله، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر! فقال: يابلال، أفلا أكون عبدا شكورا ولقد أنزل الله علي الليلة آية {إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار..} **ثم قال صلى الله عليه وسلم:{ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها}** [٣]

فهذا المقطع يصور عظمة منافع التفكير من زاوية عظمة الخسارة الحاصلة بإهماله. فكلمة ويل تعني في مدلولها العام، الحرمان من الخير لمن لا يتدبر ولا يتفكر إما بإهماله عقله أو بفقدانه له. فبالرغم من أن الشرائع والطبائع راعت العقل في الخلقة، فمن لا عقل له لم تكلفه الشرائع، ولم تلمه الطبائع بل له أن يفعل ما يريد.

لكنه أمام سنن الكون غير معذور فلا بد أن يدفع الثمن فالأحمق والمعطل لفكره لا يرحم أمامها فتجده يقتات من الأزبال وينام على الرصيف ويجمع أوساخ العمر..فهذا نموذج يصور حياة الجاحد والظالم وكل معطل لفكره ولم يستفد منه فتصرف بظلم الله أو ظلم نفسه أو ظلم غيره فلا بد أن تعذبه سنن الآخرة. والمكذب بذلك عليه أن يكذب قناعته بما يعيشه فاقد عقله في الدنيا.

ـ فالنتائج الدنيوية العظمى المكتسبة بالتفكير نماذج وأمثال تنادي الإنسان أن يستخرج مثل ذلك من فكره لبناء روحه وآخرته، فما يحققه التفكير للجسم يحقق مثله التفكير للروح وما يجره عدم التفكير من ويلات على الجسم يجر مثله عدم التفكير للروح لذلك استعرض الله أدوات الإدراك في معرض الامتنان فقال تعالى:

{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [٤]

فوافق الله بين ندائه الشرعي والكوني للإنسان أن يستعمل فكره لصناعة الوجود بالموجود، واستثمار العطاء الأزلي المحدود للبقاء الأزلي الممدود بالتمركز في الحياة بخصائص الأمة وصفاتها الشرعية والكونية أمام التوجهات المختلفة للأمم المتصارعة.

١ موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص ١٢
٢ الأعراف: ١٧٩
٣ صحيح ابن حبان - محققا ٢/ ٣٨٦ حديث: ٦٢٠
٤ النحل: ٧٨

فتعاليم التشريع الإسلامي كلها صغيرها وكبيرها دقيقها وجليلها في كل مجال تصبّ في هذا الاتجاه الذي هو صناعة الكيان والوجود. لكن مع الأسف، تجد الكثير من المثقفين ناهيك عن الرعاع فهموا ذلك في السياق السلبي الضيق المغلوط فتجد منهم من فصل الدين عن الحياة، وتجد منهم من فصله عن المعاملات ومن يصف أمورا من الدين بالقشور، ويصف المتصفين بذلك بصفات نابية وغير ذلك من القناعة الخاطئة الخادعة الشيء الذي فرض على هذه الطبقة أن تكون بوقا لعدوها تصفق له وتمثل كيانه وتساعده على بناء وجوده على حساب كيان الأمة.

فللأمة خصائصها الشرعية وأركان قيامها، منها ينبثق بناء وجودها الكوني. فما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء تعبدي يفعله اليهود أو النصارى إلا قال افعلوا كذا وخالفوهم. لأن المخالفة تجعل الأمة تنسج نسيجها وتشق طريقها الخاص بين الطرق، وترفع شعارها بين الشعارات، وذلك غرس لوجود ها في أعماق الوجود، لا في أعماق الموجود فبالأول تدوم ولا تنقطع ويبني أولها لثانيه وهذا أساس كل حضارة وكل تقدم، فبه تفرض الأمة مكانتها في الأزمنة والأمكنة بين الأمم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نَحْنُ الآخِرُونَ وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ أُوتِيَتِ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِى كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا هَدَانَا اللَّهُ لَهُ فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»[١]

التفكير عنصر أساس للاستفادة من كل نعمة. وإهماله سبب مباشر في إفساد كل نعمة. من لم يفكر في التقدم تأخر حتما لأن الكون لا يقبل الفراغ. يقول محمد إقبال: أرى التفكير أدركه خمول كبير، لا يعمل، أو يعمل ضد نفسه.

ويقول أيضا من ذا الذي استرخص نفسه ليرفع اسمك فوق هامات النجوم فخارا كنا جبالا في الجبال وربما سرنا على موج البحار بحارا[٢]

التفكير في امتلاك الماهيات . الحقائق . جزئية في مفهوم الإنسانية، والتفكير في امتلاك الماديات من القواسم المشتركة في مفهوم البهيمية. وليس ذلك عيبا، لكنه مصيبته أن يكون على حساب الحقائق.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قلما كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: {اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث مِنّا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا}[٣]

حرية فكر لا حرية جسد

بحرية الفكر يحافظ الإنسان على وجوده النوعي وبه يسمو. به يتعامل ويسترشد، ويمثل آدميته وإنسانيته يخالف المخلوقات التي تخالفه شرعا وكونا فهي حرة بأجسامها بها تتعامل وتسترشد، بناء على قاعدة الاصطفاء الأزلي للآدمية المشرفة على سائر المخلوقات {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [٤] لتحقيق الغاية الأزلية: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[٥]

وقد تعامل من تعامل بفكره مع العلم فاهتدي به إلى ثماره فتزود منه وانتفع في حين حرم الغير. وتعامل آخرون مع الصناعة فاهتدوا بها إلى فوائدها فتزودوا منها وانتفعوا وسعدوا في حين حرم الغير. وتعامل آخرون مع الدين فاهتدوا به إلى ثماره فتزودوا منه وانتفعوا وحفظوا وسعدوا في حين حرم الغير.

فالفكر بمنزلة مقياس لما ينفع وما يضر فيهدي صاحبه إلى ما يأتي وما يذر دون أداء ضريبي على التجربة.

---

١ صحيح مسلم كتاب الجمعة باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة الحديث رقم ٢٠١٥

٢ عودة الروح ويقظة الإيمان ص: ٢٠

٣ أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ٧٠٩ حديث: ١٩٣٤ ـ والبغوي في شرح السنة ١٥٢/٣ حديث: ١٣٦٧

٤ القصص: ٦٨

٥ الذاريات ٥٦

من ثم عرّض الله تعالى الإنسان أحيانا للخسارة في تجارته وصناعته وعرضه للندامة في اختياراته كمقاييس يتذوق بها مرارة سوء الاختيار أو سوء التفكير أوالتفكير بالجسد لا بالعقل.. تصويرا لمرارة الخسارة والندامة يوم القيامة.

إن الله تعالى شرف الإنسان أعظم تشريف جين منحه العقل والفكر ليجعله بريدا له في الحياة المختلفة يزن له الأمور ثم يعود إليه بنتيجة تجعله يقدم أو يحجم. يرسله عبر الزمن الماضي فيذكره بما ضيع ويرسله عبر الزمن القادم فيخبره بما ستئول إليه أفعاله الحالية ليحسن البداية.

وفي مقابل حرية الآدمي في فكره خلق الله الحيوان حرا بجسمه فلا أمر له ولا نهي وإنما أمره في لجام أو اصطدام أو ضرب.

ومثله يعيش الأحمق فلا يؤمر ولا ينهى إلا بالاصطدام. ومثله الولد الصغير قبل أن يدرك الخطاب تجده يدفع ضريبة السلامة بوضع يده على النار، وعندما يدرك يتفادى ذلك بأبعاد عقله.

وتجد من لم يحكم فكره عند لوحة قف، يصطدم إما بسيارة أو شخص او بغرامة مالية أو بسب الناس ولعائنهم والصور تحاكي شرع الله تعالى في الأرض فمن أهمل فكره أو فقده فلا بد أن يصطدم. فمن لم يتوقف عند حدود الله سيصطدم بوعيده وعقابه. فالفلسفة الكونية توجب الأمر الشرعي ونهيه وتوجب أبعادهما

قال الله تعالى {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[١].

وقال: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}[٢]، والله تعالى رحم الإنسان وشرفه حين أمره ونهاه حتى يسلم بفكره في حياة الابتلاء فيسلم روحه في حياة الجزاء.

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن ترضى عنا وعن والدينا وذوينا وسائر عبادك الصالحين والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١. أدب الدنيا والدين لعلي بن محمد البغدادي، الشهير بالماوردي الناشر: دار مكتبة الحياة

٢. الأدب المفرد للإمام البخاري – الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع

٣. أسد الغابة للإمام ابن الأثير ط – الفكر

٤. إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية – ط – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

٥. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي – ط – دار الكتب العلمية

٦. جمالية الدين للشيخ فريد الأنصاري. ط. دار السلام للنشر والتوزيع

٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الناشر: السعادة / الكتبة الشاملة

٨. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة للشيخ الألباني

٩. سنن الترمذي للإمام الترمذي تحقيق أحمد شاكر ط دار الكتب العلمية

١٠. شرح السنة للإمام البغوي – ط – دار الكتب العلمية

١١. شعب الإيمان الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض

١٢. صحيح البخاري بشرحه فتح الباري لابن حجر –ط – دار الريان للتراث

١٣. صحيح ابن حبان لناشر: مؤسسة الرسالة

١٤. عودة الروح ويقظة الإيمان الناشر: دار السراج

١٥. فتح الباري لابن حجر – ط – دار الريان للتراث

١ البقرة: ٢٢٩
٢ النور: ٢١

١٦. فيض القدير لزين الدين عبد الرؤوف المناوي الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر
١٧. قانون التأويل لأبي بكر بن العربي دراسة وتحقيق: محمد السليماني الناشر: دار الغرب الإسلامي
١٨. لسان العرب الناشر: دار صبح
١٩. المدهش لابن الجوزي. الناشر: دار الكتب العلمية
٢٠. المستدرك على الصحيحين للحاكم الناشر: دار الكتب العلمية
٢١. مسند أبي داود الطيالسي الناشر: دار هجر
٢٢. مسند الإمام أحمد / دار الحديث – القاهرة
٢٣. المعجم الأوسط لأبي القاسم الطبراني – الناشر: دار الحرمين – القاهرة
٢٤. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار . في تخريج أجاديث إحياء علوم الدين للغزالي – للحافظ العراقي الناشر: دار ابن حزم.
٢٥. الموسوعة في صحيح السيرة النبوية – العهد المكي لمحمد إلياس.ط: مطابع الصفا – مكة
٢٦. موسوعة الإعجاز العلمي للأستاذ النابلسي/ الناشر: دار المكتبي
٢٧. هذا ديننا للشيخ الغزالي ط دار القلم.